أصحاب الحديث لغضبه وقام هو فأخرج صحائف فجعل يقول: أين الذين يزعمون أن يحيىٰ بن معين ليس أمير المؤمنين في الحديث؟ نعم يا أبا زكريا (كنية يحيىٰ بن معين) غلطتُ وكانت صحائف، فجعلت أكتب من حديث ابن المبارك عن ابن عون، وإنما رواها عن ابن عون غير ابن المبارك.

وصدق من قال:

أنصفْ وإن كنتَ ذا جاهٍ ومرتبةٍ ... وعُدْ إلى الحق مهما كنتَ مقتدرا

فمَن تكبَّر في حق أهُين به ... ومن تواضع في حقٍّ فقد كبُرا

* * *

إنها أحكام الأنبياء

وانظر إلىٰ تلك القصة العجيبة التي رواها البيهقي بسنده عن الشعبي قال: خرج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلىٰ سوق الكوفة فإذا هو بيهودي: (وقيل نصراني) يبيع درعًا، فعرف علي الدرع، فقال: هذه درعي، فأنكر اليهودي، فقال علي: بيني وبينك قاضي المسلمين وهو شريح بن الحارث الكندي ـ قاضي الكوفة ـ فذهبا إليه وقال له علي: اقض بيني وبينه فقال له شريح: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال علي هذه درعي ذهبت مني منذ زمان فقال شريح: ما تقول يا يهودي؟ فقال: ما أكذب أمير المؤمنين! ولكن الدرع درعي، فقال شريح: ما أرىٰ أن تخرج الدرع من يده، فهل من بينة؟ فقال علي: ابني الحسن يشهد علىٰ ذلك، فرفض شريح شهادة الابن لأبيه لمظنة المحاباة وقضىٰ بالدرع لليهودي ورضي بذلك علي فقال اليهودي: أما أنا فأشهد أنها أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يجيئ إلىٰ قاضيه وقاضيه يحكم عليه لا له؟! والله يا أمير المؤمنين إنها درعك، وقد سقطت عن جملك الأورق يوم الجمل فأخذتها، وإني لأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فقال علي: أما إذ

أسلمت فهي لك وحمله على فرس له عتيق، فقال الشعبي: لقد رأيته يقاتل مع علي في صفين حتى قتل.

وهكذا كان قضاة المسلمين يصدرون أحكامهم العادلة فيما يعرض عليهم من القضايا في حرية تامة ولا تأخذهم في إقامة العدل أو الحكم بالحق لومة لائم؛ الحاكم والمحكوم، المسلم والذمي، القريب والغريب، القوي والضعيف الكل أمام القضاء سواء. لذا حكم شريح على أمير المؤمنين لليهودي بما رآه حقًّا، وأمير المؤمنين يرضى بالحكم لأنه حكم بمقتضى الشرع، فاهتزت نفس اليهودي إعجابًا بعدالة الإسلام وذهبت حفيظته على المسلمين وأعلن إسلامه لما رأى من قيام هذه الأمة في رعيتها وأهل ذمتها بالعدل الذي هو من أحكام الأنبياء.

والفضل ما شهدت به الأعداء

ونختم بما رواه البلاذري رحمه الله عن سعيد بن عبد العزيز أحد الأئمة الثقات أنه لما جمع هرقل ملك الروم الجموع لقتال المسلمين في اليرموك، رد المسلمون على أهل حمص ما كانوا أخذوه منهم من الخراج، وقالوا لهم: لقد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم فقال أهل حمص: والله لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم إلا أن نغلب ونجهد فأغلقوا الأبواب وحرسوها وهكذا فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى فلما انتصر المسلمون دخلوا تحت إمرتهم وأدوا الخراج.

وكان أهل حمص نصارى، قد صالحهم المسلمون على أن يدفعوا لهم الجزية والخراج ويتكفل ولي أمر المسلمين بحمايتهم ودفع الأعداء عنهم، وقد كانوا قبل حكم المسلمين تحت حكم الروم وهم على دينهم. فلما رأى المسلمون أنهم غير قادرين على الوفاء لهم بشرط الحماية، ردوا عليهم ما أخذوه منهم، فأكبر ذلك أهل حمص، لأنهم لم يعهدوا مثله في أمة غير المسلمين، وأشادوا بعدل المسلمين وحسن ولايتهم عليهم، وأنهم أحب إليهم من الروم مع كونهم على دينهم، وهذه شهادة

صريحة بعدالة هذه الأمة، ليس من أبنائها ولكن من أعدائها والفضل ما شهدت به الأعداء.

وقد كتب ـ مثل هذا ـ أهل وادي الأردن إلى قائد المسلمين أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قائلين: (يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ولكنهم غلبونا على أمرنا) وقد رواه أيضًا البلاذري في «فتوح البلدان».

* * *

مثنى جمع فعله!

وقبل أن نترك هذه الآية العظيمة من سورة الحجرات نختم بكلمة عن أهمية الإصلاح بين الناس، وعن المبادرة في رأب الصدع ولم الشمل، ولعلك تلاحظ حينما تقرأ قوله عز وجل: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، ونلاحظ أن الفعل ﴿اقْتَتَلُوا﴾ جاء بصيغة الجمع ولم يقل: (اقتتلا) مع أن الفاعل مثنى وهو (طائفتان) رغم أنه قال بعد ذلك عند الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فقال: (بينهما) بصيغة المثنى ولم يقل: (بينهم) بالجمع كما قال: (اقتتلوا).

وما ذلك إلا لأن الذي يعقد الصلح ويقوم به فرد واحد بينما الذي يقاتل في الميدان إنما هو جيش في مقابل جيش آخر. ولكن لا يحضر عند الصلح كل من اشترك في القتال من أفراد الجيشين أو الطائفتين المتقاتلتين، وإنما يجلس على مائدة الصلح رئيسا الطائفتين أو مندوب ينوب عن كل جماعة ويتحدث باسمها.

فإتيان الفعل عند القتال والخصام في صيغة الجمع (اقتتلوا) وإن جاء الفاعل في صيغة التثنية إنما هو إشارة من طرف خفي إلى أنه في الخصومة تتشعب الأمور وتتعقد

الظروف وتتأزم المواقف ويحدث التداخل والتشابك والتشاجر (كما تلتف أغصان الأشجار وتتشابك فروعها كما في قوله عز وجل: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] ويختلط الحابل بالنابل بحيث يصعب التمييز بينهما أو الفصل إذ تدوي قعقعة السلاح وتختلط الأصوات فلا يسمع أحد أحداً وتضيع أصوات العقلاء التي تنادي بالتوقف عن القتال والجلوس إلى مائدة المفاوضات.

ومثل نسق هذه الآية فإن هناك آيات أخرى تشبهها كقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥] ولم يقل: (فإذا هم فريقان يختصمان) كما هو المتبع حسب قواعد اللغة، وكذلك قوله عز وجل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]، ولم يقل: (هذا خصمان اختصما) مما يدل على أن الخصام وما يفضي إليه من قتال إنما هو خطر داهم يأتي على الأخضر واليابس.

فكلمة (اقتتلوا) في آية سورة الحجرات بصيغة الجمع تدل على تفاقم خطر الحرب وتطاير شررها واتساع نطاقها ودخول أطراف جدد إلى حلبة الصراع، فكثير من الحروب الأهلية والإقليمية تبدأ على نطاق محدود ثم يستفحل أمرها.

* * *

أهمية الإصلاح بين الناس

فهذه الحروب التي تحدث بين طائفتين من المسلمين إنما تؤدي إلى إضعاف الأمة وتفرقها إلى شيع وأحزاب متنافرة وطوائف متناحرة، البعض يؤيد هذه الطائفة والبعض الآخر يؤيد الطائفة الأخرى ويناصرها، مما يجعل عدوها المتربص بها يطمع فيها، فالقتال كله شر والصلح لا يأتي إلا بالخير ولذلك قال رب العزة: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، ولذلك أمرنا ربنا عز وجل بالمبادرة إلى إصلاح ذات البين قبل أن

يتسع الخرق على الراقع ويخرج الأمر عن حدود السيطرة، قال عز وجل: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقال أيضًا: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وفي حديث أبي داود والترمذي وابن حبان أن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟**» قالوا: بلى يا رسول الله: قال: «**إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول لكم تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**».

ولعلك تعجب لماذا جعل الرسول ﷺ المصلح في درجة أرقى وأفضل من درجة العابد ؟! وما ذلك إلا لأن المصلح يحب للناس الخير كما يحبه لنفسه، ويبذل من جهده ووقته وماله في سبيل رأب الصدع وتصفية النفوس من الأضغان والأحقاد، وإطفاء نار العداوة والفتن، ليحل محل ذلك مشاعر الود والوئام التي تجمع القلوب وتؤلف بينها.

وأيضًا إذا تعجبت من هذا التفاوت العظيم والتفضيل الكبير في الأجر والدرجة بين العابد والمصلح لرأيت أنه لولا ما يفعله هذا المصلح من لم الشمل ورأب الصدع وتأليف القلوب لحدث التنافر والتدابر والقطيعة بين المسلمين ولوجد الشيطان فرصته في التحريش بينهم وإلقاء نار العداوة والبغضاء في قلوبهم ولأصبح بأسهم بينهم شديدًا ولحدث بينهم التنازع والفشل ولضعفت شوكتهم وطمع فيهم عدوهم وغزاهم في عقر دارهم ولمنعهم من العبادة والصلاة في مساجدهم ولذلك حذرنا الله من ذلك في قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

فماذا تنفع المسلمين صلاتهم وصيامهم وقلوبهم شتى وكل منهم يتربص بأخيه الدوائر ويتوجس منه خيفة، وما نجح أعداؤنا في القضاء على قوتنا إلا بعد أن أزالوا

الألفة من القلوب وأضعفوا رابطة الأخوة بين المسلمين وما استطاع أعداؤنا إخراجنا من بلاد الأندلس إلا بعد أن جعلوا المسلمين طوائف متناحرة يقتل بعضها بعضًا مما سهل عليهم القضاء علينا وإلحاق الهزيمة بنا، ولذلك قال الرسول ﷺ: «**فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر بل تحلق الدين**»، أي: أن القطيعة والخصومة بين المسلمين تستأصل الدين كما يستأصل الموسى الشعر من فوق الرءوس.

* * *

الإصلاح وظيفة الأنبياء

والإصلاح بين الناس إنما هو وظيفة الأنبياء ففي الحديث المتفق عليه عن عائشة أن رسول الله ﷺ سمع صوت خصوم بالباب عالية أصواتهما، وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء (أي: يطلب منه أن يضع عنه بعض دينه ويسأله أن يرفق به) وهو يقول: (أي: الآخر) والله لا أفعل، فخرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: «**أين المتألي على الله ألا يفعل المعروف؟**» (أي يحلف بالله **لا** يفعل المعروف) فقال: أنا يا رسول الله، (ثم رجع عن قوله السابق: والله **لا** أفعل) وقال: فله أيُّ ذلك أحبَّ، أي: له ما يريد من وضع جزء من الدين عنه وأن يعامله باللين والرفق.

بل أن الرسول ﷺ كما في حديث الشيخين لما بلغه أن بني عمرو بن عوف كان بينهم شر فخرج إليهم يصلح بينهم في أناس معه، فحُبس رسول االله ﷺ وحانت الصلاة (أي تأخر الرسول ﷺ عن الصلاة حتى حان وقتها واجتمع الناس في المسجد ليؤمهم الرسول ﷺ في الصلاة ولكنه تأخر عنهم بسبب الإصلاح)، فجاء بلال إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر إن رسول الله قد حبس وحانت الصلاة فهل لك أن تؤم الناس، قال: نعم إن شئت.

وفي رواية للبخاري أنهم أهل قباء فلما أخبر الرسول ﷺ بذلك قال: «**اذهبوا بنا**

نصلح بينهم».

وفي الحديث فضل الإصلاح بين الناس وجمع كلمة الأمة وحسم مادة الخلاف، وقد أباح الرسول ﷺ الكذب من أجل الإصلاح مع أن الكذب من الكبائر ولكن ينبغي أن ننظر إلى القطيعة بين المسلمين وفساد العلاقات بينهم إلى أنها من الكبائر التي لا تبقي ولا تذر، ففي الحديث المتفق عليه: «**ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً**» وفي رواية مسلم: «**لم يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها**».

ولذلك أيضًا نهانا الرسول ﷺ أن يهجر أحدنا أخاه فوق ثلاث ليالٍ كما في الحديث المتفق عليه حتى لا تدب القطيعة بين المسلمين ولتبقى المودة والمحبة بين القلوب قائمة لا تزول، وقد بين القرآن لنا أهمية الأخوة وتأليف القلوب حتى لا نفرط في هذا الأمر أو نستهين به، قال عز وجل: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾ [آل عمران: ١٠٣] فالأصل بين المؤمنين هو الألفة ومشاعر الود والأخوة والتسامح والرحمة بينما في القرآن الكريم تستخدم الغلظة والشدة فقط مع أعداء الدين من الكفار والمنافقين يقول عز وجل: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح: ٢٩] والآيات غير ذلك كثيرة.

فمجتمع المؤمنين مجتمع متراحم ومتآلف فهم كما وصفهم الرسول ﷺ في حديث الشيخين، في تعاطفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وسنتكلم عن ذلك بشيء من التفصيل إن شاء الله حينما نتكلم عن حقوق الأخوة في الآية التالية وهي قوله عز وجل: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الحجرات: ١٠].

❋ ❋ ❋

الواقع الأليم

ولكن مما يحزن القلب الآن أن مجتمع المسلمين قد اختفت منه معاني الرحمة والعفو والإغضاء وتلاشت منه فضائل الصبر والتسامح والاحتمال، ولذلك يبادر كثير من الناس بالشكوى واللجوء إلى ساحة القضاء لحسم ما ينشأ بينهم من خلافات ولا سيما بعد إحجام كثير من المسلمين عن فضيلة الإصلاح بين الناس وتقاعسهم عن السعي لرأب الصدع وإصلاح ذات البين فامتلأت مراكز الشرطة بالخصومات المتعددة واكتظت المحاكم بالقضايا المتراكمة حتى أصبح الكثير من القضايا يستغرق النظر فيه سنوات وسنوات وذلك قبل أن يصدر الحكم النهائي للقضاء، فيظل الظالم مستمتعًا بما ليس له من حق وقد يموت المظلوم من الكمد والحزن والقهر و ما ذلك إلا بسبب بطء إجراءات التقاضي وكثرتها كالطعن والاستشكال والنقض والإبرام والاستئناف.

هذا بالإضافة إلى لجوء بعض الناس والمحامين إلى التحايل والالتفاف حول القوانين والبحث عن الثغرات الموجودة فيها، كما يضيق وقت القضاة عن فحص القضايا المكدسة وإصدار الأحكام العادلة بشأنها مما يؤدي إلى ضياع مصالح الناس وهضم حقوقهم، ولذلك فإن العدل البطيء يعد نوعًا من أنواع الظلم والإجحاف.

وكما أن الناس أحجموا الآن عن إصلاح ذات البين فهم أيضًا قد أهملوا أمر الشفاعة بين المتخاصمين، مع أن ديننا الحنيف قد أمرنا بذلك يقول عز وجل: ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا**﴾ [النساء: ٨٥].

وانظر إلى هذا الحديث المتفق عليه والذي يبين لنا أثر الشفاعة الحسنة في الإصلاح بين الناس فإن كعب بن مالك تقاضى ابن حدرد دينًا كان له عليه وارتفعت أصواتهما في المسجد النبوي حتى سمع ذلك رسول الله ﷺ وهو في بيته، فكشف ستر حجرته الشريفة ونادى: «يا كعب بن مالك» فقال كعبك لبيك يا رسول االله، فأشار إليه بيده أن ضع الشطر من دينك، قال كعب: قد فعلت وقال الرسول ﷺ لابن حدرد: «قم

فأقضه»، وأيضًا في الحديث المتفق عليه: «اشفعوا تؤجروا».

ولو أن كل صاحب جاه استغل ما لديه من منزلة بين الناس للإصلاح بينهم ولو أن كلاً منا تصدق بكلمة طيبة لا تكلفه شيئًا ـ حتى يبخل بها ـ فيقوم بوأد الفتنة في مهدها، فتحفظ الدماء والأرواح وتوفر الأموال والأوقات التي كانت تنفق سُدىً في أروقة المحاكم وساحات القضاء ولتجنبنا شهادة الزور وإنفاق الجهود في سفاسف الأمور، ولتفرغنا لترقية الحياة، وتزكية النفوس.

ولكن مما يؤسف له أن انتشرت بيننا الأمثال الشعبية التي تدعو إلى السلبية وأن الذي يصلح بين الناس لا يصيبه إلا تقطيع ثيابه، وأصبح كل منا مشغولاً بنفسه لا يحرك ساكنًا إلا من أجل مصلحته، ولا يفكر في الهم العام أو في فعل ما ينفع الناس أو فيما يدرأ عنهم الأضرار والأخطار.

ولا مخرج لنا مما نحن فيه إلا بالعودة إلى شرع الله وإلى عدالة الإسلام التي تريح القاضي والمتقاضي على حد سواء والتي تجعل الناس يعيشون وينعمون بالأمن والسعادة والسلام. ويروى أن الخليفة الأول أبا بكر قد ولّى عمر بن الخطاب القضاء في المدينة فمكث عمر عامًا كاملاً لم يحتكم إليه خصمان، فذهب إلى أبي بكر وقال له: (قلّدني عملاً غير القضاء فإنه لم يأتني متخاصمان منذ عام) وذلك بسبب شيوع العدل ووقوف كل من الراعي والرعية عند حدود الله عز وجل.

ولكن هناك نقطة هامة نلفت إليها الأنظار وهي أننا ينبغي أن نكون صالحين في أنفسنا أولاً وأن نصلح أحوالنا قبل أن نكون مصلحين لغيرنا وصدق الله إذ يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]. فينبغي أن تكون تقيًا صالحًا حتى يُسمع لقولك ويؤخذ بنصحك وينبغي أن تنصلح نيتك حتى تقبل شفاعتك وحتى تستطيع أن تحكم بين الناس بالحق وحتى تفوز بحب الله لك، ففي ختام آيتنا هذه رغبنا الله في الإصلاح بين الناس بالعدل والقسط وذلك في قوله عز وجل: ﴿**فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الحجرات: ٩] اللهم اجعلنا من عبادك الذين تحبهم ويحبونك.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

الأخوة الإيمانية

بدأ الله عز وجل هذه الآية الكريمة بصيغة الحصر فجاء بـ«إنما» وهي أداة حصر وقصر ليبين أن الأخوة الحقة إنما تكون بين المؤمنين. وأيضًا للإشارة إلى أن الأخوة إنما ينبغي أن تقوم على عرى الدين ورابطة العقيدة فهذه هي الأخوة المعتبرة التي يُعتد بها والتي تبقى وتدوم لأن الله هو الذي عقد هذه الأخوة بنفسه وهو الذي آخى بين المؤمنين ورضي لهم الإيمان ليكون أساسًا تقوم عليه علاقاتهم مع بعضهم البعض.

فالله قد اختار لنا كلمة الأخ لنعلم أن صلتنا ببعض ليست صلة مادية تنبثق من اعتبارات أرضية أو من مصالح دنيوية، بل هي أقوى من ذلك إذ تنشأ من صلة كل واحد منا بدينه ليصبح الدين بمثابة الأب الذي هو أصل وجود الابن، فالمؤمنون بهذه الرابطة القوية التي تجمع بينهم كأنهم من أب واحد كما قال الشاعر الحكيم:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

ولذلك امتن الله على المؤمنين وأمرهم بالمحافظة على هذه الرابطة الإيمانية التي تربط بينهم وذكرهم بنعمة التأليف بين قلوبهم فقال عز وجل: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وبيَّن لهم أيضًا أن تأليف القلوب نعمة كبرى لا ينبغي أن يستهينوا بها وأن يعضوا عليها بالنواجذ وأن يقدروها حق قدرها فقال عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

لماذا تقوم الأخوة على الدين؟

وقد يعترض قائل فيقول: لماذا حصرنا الأخوة في الدين؟ أليس هذا نوعًا من التعصب؛ فمن كان على ديننا منحناه صفة الأخوة ومن كان على غير ديننا أسقطنا عنه صفة الأخوة ولكن إذا نظرنا إلى العوامل الأخرى التي تصلح أن تقوم عليها العلاقات بين الناس كالأرض مثلا أو الوطن فكل من يسكن في وطن واحد منحناه لقب المواطن وأسبغنا عليه الكثير من الحقوق والامتيازات بغض النظر عن عقيدته ولو كان ملحدًا، واعتبرنا غيره ممن هو على ديننا أجنبيًّا وحرمناه من تلك الحقوق والامتيازات لا لشيء إلا لأننا قصرنا النظر على اعتبارات الأرض والمكان بينما العلاقة التي تقوم على أساس الدين هي أرحب وأشمل، فديننا يأمرنا بالإحسان إلى كل الناس بغض النظر عن عقائدهم وديانتهم: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [البقرة: ٨٣].

فالدين صمام أمن يصون النفس عن العنصرية ويحميها من النظرة الضيقة والتعصب البغيض وانظر إلى قوله عز وجل: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]ولم يقل: (رحمة للمؤمنين) فقط بل للعالمين مؤمنهم وكافرهم، فالإسلام ليس دينًا إقليميًّا محدودًا بل هو للناس أجمعين وصدق الله إذ يقول: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾ [سبأ: ٢٨]. فأخوة الدين أقوى من أخوة النسب والدم وليس معنى ذلك أن نتنكر لرابطة النسب فقد قال عز وجل في الأبوين الكافرين: ﴿**وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾ [لقمان: ١٥] وقال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه لأسماء حينما قدمت عليها أمها وهي راغبة في أن تصلها ببعض المال: «**صِلِي أُمَّكِ**» مع أنها لم تزل على شركها. فلا بأس بالبر والإحسان فهو مبذول لكل الناس أما الولاء والمودة والنصرة فإنما خص بها من جمعتهم رابطة الإيمان الخالدة.

قال عز وجل: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴿٨﴾

إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

أخوة لا يحدها زمان أو مكان

فرابطة الإيمان تربط بين المؤمنين وإن نأت بهم الأوطان وتباعدت بينهم الديار وعاش بعضهم في الشرق وعاش بعضهم في الغرب، فإذا وجد من أيّ شخص كان الإيمان بالله فإنه أخ للمؤمنين أخوة توجب له العون والنصرة وأن نحب له ما نحب لأنفسنا ونكره له ما نكره لأنفسنا.

كما إن الأخوة لا تقتصر فقط على المكان ولكن أيضًا تشمل الزمان الماضي منه والمستقبل وانظر إلى دعاء نوح عليه السلام منذ آلاف السنين: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]، وانظر أيضًا إلى دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]. فلم ينس أحد منهما أن يدعو لكل من جاء بعده وتجمعه به رابطة الإيمان.

ولو أننا وضعنا فقط عامل المكان في الاعتبار دون عامل الزمان لأخرجْنا من دائرة الأخوة كل مَن سبقونا بالإيمان وانظر إلى دعاء المؤمنين أيضًا لإخوانهم المؤمنين الذين تقدموا عليهم في الزمان يقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] فهي أمة مرحومة يدعو سابقها للاحقها ويدعو آخرها لأولها وذلك بفضل رابطة الإيمان التي تجمع بين قلوب المؤمنين في كل زمان ومكان.

بل وانظر إلى دعاء الملائكة الأطهار: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا

﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

وقد وصف الله هؤلاء الملائكة من حملة العرش المقربين والذين يدعون للمؤمنين في الأرض وصفهم بالإيمان مع أن هذا الوصف للملائكة بالإيمان في قوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧]. إنما هو تحصيل حاصل وأمر مسلّم به وإنما جاء بهذا الوصف ليبين رابطة الإيمان التي تربط بين الملائكة وبين المؤمنين من البشر والتي بمقتضاها كان هذا الدعاء الضارع والابتهال الخاشع من الملائكة المقربين للمؤمنين.

فأي رابطة أقوىٰ وأسمىٰ وأشمل وأروع من تلك الرابطة التي باركها الله عز وجل ورضيها لنا دون سواها؟ ولذلك فلا يرث كافر مؤمنًا ولا يرث مؤمن كافرًا بل يرد مال المؤمن بعد موته لا لأخيه الكافر بل إلىٰ بيت مال المسلمين فهم أولىٰ به وأحق فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض.

* * *

الإيمان رحم والإسلام نسب

وهكذا حصر الله الأخوة بين المؤمنين فلا أخوة بين مؤمن وكافر فالإسلام إنما هو بمثابة الرابطة بين أبنائه والرَّحِم بين أتباعه وفي الحديث المتفق عليه: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا وشبك بين أصابعه**». وأيضًا ورد في حديث الشيخين: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى**». وأيضًا حديث أبي داود والترمذي: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم**».

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] إنما هو تعليل للأمر بالإصلاح في

قوله عز وجل: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. فلِكَونهم إخوة كما تقرر في صدر الآية فإنه لابد أن يسعىٰ بينهم بالصلح وذلك لرأب الصدع وسد الثغرات ليكونوا بحقٍّ كالبنيان المتماسك وكالجسد الواحد. ونلاحظ أيضًا أنه بعد قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] لم يقل: (فأصلحوا بينهم) أو: (فأصلحوا بين بعضكم البعض) بل قال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] أي كرر مرة أخرىٰ اللفظ الدال علىٰ الأخوة مضافًا إلىٰ ضمير المخاطبين وذلك زيادةً في تقرير تلك الحقيقة في قلوبهم وللإشارة أن الإيمان قد عَقد بين أهله من السبب القريب والنسب العريق ما يبلغ درجة الأخوة الحقيقية إن لم يفضلها.

وتخصيص الاثنين بالذكر في قوله عز وجل: ﴿أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. وذلك لإثبات وجوب الإصلاح فيمن فوقهما من باب أولىٰ لأن الاثنين هما أقل ما يقع بينهما الشقاق، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم، وذلك لأن الفساد والفتنة في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين.

وقوله عز وجل: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠] أي: في غير القتال، فقد ذكر ذلك في الآية السابقة ولكن الإصلاح هنا في كل ما يعكر صفو هذه الأخوة، ولو في أدنىٰ اختلاف، فالاحتكاك اليومي وتعامل الناس فيما بينهم قد تنشأ عنه بعض الحزازات التي قد تؤثر علىٰ الأعصاب، فلابد من عملية الإصلاح اليومي والصيانة الدورية فيما شجر بين إخوة الإيمان لتصفية القلوب من الشوائب والأكدار و لوَأْد المشاكل في مهدها قبل أن تستفحل وتستعصي علىٰ الحل والعلاج ولذلك نهانا الرسول ﷺ أن تستمر القطيعة بين المؤمن وأخيه أكثر من ثلاث ليال.

وهكذا وبعد دعوة المؤمنين للإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين جاء التعقيب في هذه الآية باستجاشة قلوبهم وتذكيرهم بالرابطة الإيمانية التي جمعتهم بعد تفرق وبأن الأخوة بينهم لا تتغير صفتها ولا تنقطع آثارها بتلك العوارض التي سرعان ما تذهب أدراج الرياح ثم يعود إليهم ما كان بينهم من الود والصفاء.

OBEIKAN.COM

ولأهمية الإصلاح أجاز الإسلام ـ كما بينا ـ الكذب في الإصلاح بين المؤمنين فالمصلح ليس بكاذب. ومع أن الأصل في الكذب عدم الجواز ولكن أجيز في الإصلاح وذلك تحقيقًا لمصلحةٍ هي أعظم مما في الكذب من المضرة، أو دفعًا لضرر هو أشد مما في الكذب من الضرر والمفسدة، كما جعل الرسول ﷺ إصلاح ذات البين أفضل من درجة الصيام والقيام وعلل ذلك بأن فساد ذات البين هي الحالقة التي تحلق الدين فلو صلىٰ المسلمون وصاموا ولكن بقي بينهم الخلاف والشقاق لذَهب ريحهم وطمع فيهم عدوهم ولغزاهم في عقر دارهم وخرب مساجدهم وأفسد عليهم دينهم، ولذلك كان علي رضي الله عنه يقول: (لأَن أصلح بين متخاصمين أحب إلي من أن أتصدق بدينارين).

* * *

ارتباط الإصلاح بتقوى الله

وكعادة القرآن في القضايا الجسام فإنه يوجه القلوب دائمًا إلىٰ تقوىٰ الله عز وجل فهي أساس كل خير، فمن اتقىٰ الله شغلته تقواه وخوفه من مولاه من الإساءة إلىٰ الناس بل رفعتْه تقواه إلىٰ مرتبة الإحسان إلىٰ كل الناس فهُم خلق الله.

وأيضًا من خاف الله حقًّا لم تبق له عداوة إلا مع الشيطان، فلا يعمد إلىٰ المخاصمة مع إخوانه بل يؤذيه أن يراهم في شقاق واختلاف، فيسعىٰ بينهم بالإصلاح ولذلك قال الله في ختام هذه الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. أي ليكن رائدكم في كل أموركم تقوىٰ الله وخشيته وليس من التقوىٰ أن تترك الخلاف ينشب بين أخوين مؤمنين ثم لا تسارع في منعه وإزالة سببه فنكون بتلك المسارعة مستوجبين رحمة الله والتي لا تُنال إلا بتقوىٰ الله وبالإصلاح بين الناس، ويفهم من الآية أن عدم القيام بحقوق الأخوة من الإصلاح وغيره لَهُوَ من أعظم حواجب الرحمة وأن القيام بحقوقها من أعظم موجباتها. ولذلك ربط الله عز وجل بين الأخوة التي تنشأ بين المؤمنين وبين التقوىٰ فقال عز وجل: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

فبين الله عز وجل أن العلاقة بحق هي التي تؤسَّس على أساس من التقوى والخوف من الله وليست التي تقوم على المصالح الدنيوية والمجاملات المتبادلة فما كان لله دامَ واتصل وما كان لغير الله انقطعَ وانفصل ولذلك قال في مودة الكفار المزيفة وكيف أنها تنقلب إلى عداوة يوم القيامة كما في قوله عز وجل: ﴿ **وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ [العنكبوت: ٢٥].

* * *

مقتضى الأخوة الرفق والمودة

ونلاحظ أن الله عز وجل في قوله: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٠] إنما يركز على معاني الأخوة ويكرر لفظ «الأخوة» مرتين فالموقف يقتضي الإصلاح ولكن هناك خصومة وخلاف. ومن أجل ذلك جاء بلفظ «الأخوة» مرتين حتى نغلب جانب المودة والإخاء على جانب القطيعة والخصام وتجد ذلك كثيراً في القرآن: ففي آية القصاص في القتلى يقول عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾ [البقرة: ١٧٨] فيذكر لفظ «الأخ» ترقيقًا للقلب في موطن القتل وترغيبًا لنا في العفو والصفح.

وأيضًا لما رجع موسى عليه السلام ورأى قومه يعبدون العجل وقد استخلف فيهم أخاه هارون عليه السلام غضب موسى غضبًا شديداً فأراد هارون تهدئته وتسكين غضبه فلم يجد إلا أن يناديه بقوله: ﴿**يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي**﴾ [طه: ٩٤] فهو بقوله: ﴿**يَا بْنَؤُمَّ**﴾ يذكره بأنه أخوه الذي جمع بينهما رحمٌ واحدة هي رحم أمه، وهو أمر لا يشاركه فيه إلا أخوه فقط ولذلك هدأ موسى بعد أن ذكَّره هارون بالأخوة التي بينهما بل أخذ يدعو لأخيه هارون بالمغفرة والرحمة كما حكى لنا القرآن

ذلك: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١] ونلاحظ أن موسى لم يقل: (رب اغفر لي ولهارون) بل قال: ﴿اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ فقد فطن إلى مراد أخيه فمقتضى الأخوة هو الرفق واللين والدعاء لأخيك بالمغفرة والرحمة والدخول في رحمة أرحم الراحمين.

وكذلك الشأن في قوله في الخصمين اللذين دخلا على داود عليه السلام في محرابه فقال أحدهما في شكواه: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] ولم يقل: (هذه خصمي أو هذا عدوي) بل قال: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ [ص: ٢٣] وكذلك في سورتنا هذه يقول عز وجل: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

فالله يذكّرنا في تلك الآيات السابقة أن هذا الذي تعاديه وتؤذيه وتغتابه وتنال من عرضه إنما هو أخ لك وليس بعدو أو خصم، وإن بدا لك أنه عدو فاعلم أنها عداوة طارئة ومؤقتة سرعان ما تزول بكلمة طيبة. بينما العداوة المستحكمة والدائمة هي عداوتك مع الشيطان عدوك اللدود الذي لن يتحول إلى وليٍّ حميم مهما فعلت فتذكّر أن الذي تتعامل معه من الناس إنما هو أخ لك في الله أوأنه مثلك إنسان له زلات وأخطاء فلا ينبغي أن يغيب ذلك عن الأذهان حتى لا نتمادى في الظلم والعدوان والبغي والإيذاء لأنه إن غاب ذلك عن البال لقَتَلَ الأخ أخاه والابنُ أباه بل ينبغي أن نترك مجالاً لمساعي الخير والإصلاح.

ولذلك أعلى الإسلام من قدر من يصلح بين الناس وانظر إلى حديث البخاري في شأن الحسن بن علي رضي الله عنهما والذي قال فيه الرسول ﷺ: «**إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**» وقد كان ولا تنس أيضًا حديث مسلم عن قبيصة بن المخارق الهلالي رضي الله عنه الذي تحمل من ماله الخاص واستدان وذلك من أجل الإصلاح بين الناس.

وأيضًا يذكر الله عز وجل الزوجين في آيات الطلاق في سورة «البقرة» بما كان بينهما من العشرة الطيبة والذكريات الحلوة التي لا ينبغي أن تُنسى بين عشية وضحاها فيقول عز وجل: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وما ذلك إلا لتفويت الفرصة على الشيطان في إذكاء نار العداوة والشقاق وحتى يمكن تأليف القلوب وإعادة ما كان بين الزوجين من المودة والصفاء والألفة والوئام.

وكذلك لما خاض مسطح بن أثاثة في عِرْض عائشة أم المؤمنين وبعد نزول براءتها أقسمَ أبو بكر ألا يصل مسطحًا بمعروف كما كان يفعل معه من قبل، فعاتبه الله عز وجل في قرآن يتلى إلى يوم الدين كما في قوله عز وجل: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] فذكر هجرته في سبيل الله ولم ينْفها عنه بل أثبتها له رغم ما فعل، طالما أنه تاب وأناب، فذكر ما كان له في الإسلام من حسن بلاء وسابقة إيمان ترغيبًا لنا في العفو والتسامح والغفران ولذلك تجاوز أبو بكر عن إساءته وكما ورد في الصحيحين وأعاد إليه العطاء وقال: (والله لا أنزعها منك أبدًا).

* * *

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

ولكن قد يقول قائل: هذه الأخوة إنما هي ضرب من الخيال وليس لها واقع في حياة الناس فالناس غالبًا لا يعرفون علاقة تقوم على الإيمان بل على المصالح والماديات، فأقول لقد حدث ذلك من قبلُ بالفعل، ففي عصر الرسالة الخاتمة آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار مؤاخاة تقوم على الدين والتراحم لا على رابطة

الدم والنسب والمصالح.

وبمقتضى هذه الأخوة فتح الأنصار قلوبهم وبيوتهم لإخوانهم المهاجرين حتى إنه قيل: إنه لم ينزل مهاجريّ على أنصاريّ إلا بالقرعة لأن كل أنصاريّ من أهل المدينة كان حريصًا على أن ينال هذا الشرف العظيم وكان سعد بن الربيع رضي الله عنه من أهل المدينة يقول لأخيه عبد الرحمن بن عوف من المهاجرين كما في حديث «الصحيحين»: (هذا مالي أقسمه بيني وبينك ولي امرأتان، فانظر أيهما أعجبتك أُطلقها لك فإذا انقضتْ عدتها تزوجتَها) فلم يعاملوهم كلاجئين أو كمواطنين من الدرجة الثانية بل كأصحاب الدار وبيدهم القرار ولهم حق الاختيار حتى إن الله عز وجل قد خلد ذلك قرآنًا يتلى ويتعبد به إلى يوم الدين قال عز وجل: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩] فكانت دولة المسلمين بالمدينة أول دولة تقام في التاريخ على أخوة العقيدة ورابطة الدين ولم تكن ضربًا من الخيال كجمهورية أفلاطون التي عاشت في عالم المثال والأفكار.

ولكن لما ضعف وازع الإيمان في القلوب انقسمت الدولة الإسلامية إلى دويلات متفرقة وانقسم المسلمون إلى أحزاب وشيع متناحرة ولو عادوا إلى دينهم لعاد إليهم مجدهم وعزّهم، ولنتكلم الآن عن حقوق الأخوة في الله وعن فضلها مع ضرب بعض الأمثلة مما كان عليه سلفنا الصالح، والكلام في هذا الموضوع يحلو ويطول ولكن ما لا يُدرك كله لا يترك كله.

* * *

المتحابون في الله

فمِن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: رجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه كما ورد في «الصحيحين»، وأيضًا ما رواه أبو داود وأحمد والترمذي: «**إن مِن عباد الله يوم القيامة أناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانتهم وقربهم من الله عز وجل**» فقالوا: صفهم لنا يا رسول الله فقال: «**هم قوم تحابّوا في الله بغير أرحام بينهم ولا أموال فوالله إن وجوههم لنَور وإن لباسهم لنور وإنهم لعلى منابر من نور حول العرش لا يفزعون إذا فزع الناس**». وفي رواية: «**هم المتحابون في الله المتجالسون في الله المتباذلون في الله**».

ولذلك ورد في حديث أحمد ومالك عن رب العزة: «**وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتزاورين فيَّ والمتباذلين فيَّ والمتجالسين فيَّ**». وعند مسلم: «**أين المتحابّون في جلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي**» وعند مسلم أيضًا: «**زار رجل أخًا له في قرية فجعل الله على طريقه ملكًا فلما مر عليه الرجل سأله عن سبب زيارته لأخيه: ألحاجة لك عنده؟ ألنعمة لك عنده؟ ألقرابة بينك وبينه؟ والرجل يقول: لا، غير أني أحبه في الله،فقال الملك: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه**» ومن أحبه الله أحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض كما في حديث الصحيحين.

وفي حديث الترمذي: «**من زار أخًا في الله ناداه مناد أنْ طِبْت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً**» وفي «مسند البزار» عن رب العزة: «**عبدي زار فيَّ فهو ضيفي وعليَّ قِراه فلا أرضى له قِرىً دون الجنة**» ولذلك ورد في حديث أبي داود أن رجلاً كان عند النبي ﷺ فمر رجل به فقال: يا رسول الله إني لأحب هذا، فقال له النبي ﷺ: «**أأعلمتَه؟**» قال: لا، قال: «**أعلمْه**»، فلحقه فقال: إني أحبك في الله، فقال: أحبك الذي أحببتني له، فقال النبي ﷺ: «**إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه**».

وانظر إلى حب الرسول ﷺ إلى من جاء بعده مِن أمته ففي حديث مسلم أنه قال:

«وددت لو أنَّا رأينا إخواننا»، فقالوا: أَوَلسنا إخوانك يا رسول الله؟ فقال: «**بل أنتم أصحابي، إخواننا الذين جاءوا من بعدي، آمنوا بي ولم يروني**».

وانظر أيضًا إلى شوق أمته إلى رؤيته ﷺ فقد روى مسلم: «**مِن أشد أمتي حبًّا لي أناسٌ يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**».

حلاوة التمرة وحلاوة الإيمان

ولعلك تعجب لقول أبي سليمان الداراني رحمه الله: (إني لأعطي التمرة أحد أخواني فأجد حلاوتها في حلقي)فأبو سليمان يعطي التمرة لأخيه في الله ليأكلها ولكن الذي يجد حلاوتها في حلقه هو أبو سليمان وكأنه هو الذي أكلها ولكي تفهم هذا فعليك بحديث «الصحيحين»: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان:منها أن يحب المرء لا يحبه إلا لله**».

فإنك لن تجد حلاوة التمرة في حلقك إلا بعد أن تجد حلاوة الإيمان في قلبك وذلك بأن تحب أخاك لا تحبه إلا لله، لا لغرض ولا عوض بل لوجه الله عز وجل وفي الحديث المسند: «**من سرَّه أن يجد طعم الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا للَّه**» وصدق من قال: لو كانت الدنيا لقمة ثم أطعمتها أحد إخواني فما وفيته حقه.

ومن أجل ذلك قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه كما ذكره الغزالي في «إحيائه»: (لو أني صمت النهار وقمت الليل وأنفقت مالي كله في سبيل الله ثم أموت يوم أموت وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله، ما نفعني ذلك شيئًا) وكأن ابن عمر فهم هذا المعنى من حديث «الصحيحين» عن أنس أن أعرابيًّا قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟ فقال له النبي ﷺ: «**وماذا أعددت لها؟**» قال: حب الله ورسوله. وفي رواية في «الصحيحين»: ما أعددت لها كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة غير أني أحب الله ورسوله، فقال له النبي ﷺ: «**أنت مع من أحببت**» قال أنس: فما فرحنا بشيء كفرحنا بهذا ثم قال: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم

وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.

وفي الحديث المتفق عليه أن الرسول ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم من أهل الصلاح ولما يلحق بهم فقال: «المرء مع من أحب» ولذا قال ابن السماك وهو على فراش الموت: (اللهم إنك تعلم أني إذا كنت عصيتك فإني كنت أحب من يطيعك) وذلك حتى يحشر معهم فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم. وفي «مسند أحمد» أن النبي ﷺ سأل أصحابه: «**أتدرون أي عرى الإيمان أوثق؟**»، قلنا: الصلاة والصيام حتى ذكرنا الجهاد في سبيل الله، فقال: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**». وقد روى أيضًا أحمد والترمذي وأبو داود: «**من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان**».

وروي أن اللَّه أوحى إلى موسى عليه السلام: «**هل عملت لي عملاً؟ فقال: نعم يا رب، صليت وصمت وتصدقت. قال اللَّه: هذا لك، ولكن هل أحببت لأجلي وليًّا أو عاديت لأجلي عدوًّا؟**».

ومن مقتضيات الحب في الله أن تحب لأخيك مثل ما تحب لنفسك ففي حديث «الصحيحين»: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» وفي حديث مسلم: «**من أراد أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**».

كما أن تلك المحبة تستمر إلى الآخرة حيث لا يرى بعض أهل الجنة إخوانهم الذين كانوا معهم في الدنيا فيسألون عنهم ربهم كما ورد في حديث ابن ماجه: «**فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له في الدنيا بأشد من مجادلة المؤمنين لربهم في إخوانهم الذين دخلوا النار يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويحجون معنا فأدخلتهم النار فيقول الله عز وجل: اذهبوا فأخرجوا من تعرفون منهم فيخرجونهم**». فالصديق الصالح ينفع أخاه في الدنيا ويشفع له في الآخرة، ألم تسمع لأهل النار وهم يقولون: ﴿**فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ**﴾ [الشعراء: ١٠٠ ـ ١٠١].

إذا وجدت الألفة رفعت الكلفة

ولذلك كان الحسن البصري يقول: إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا فلما قيل له: كيف ذلك؟ قال: أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة والآخرة خير وأبقى فربَّ صديق أودُّ من شقيق. وصدق القاسم بن محمد في قوله: (في الصديق البارّ عوض عن الرحم المدبرة)، وأيضًا ما قاله الإمام جعفر الصادق: (مودة يوم صلة، ومودة شهر قرابة، ومودة سنة رحم ماسة)، فكلما قدمت المودة والمحبة عظم في القلوب حق هذه الصحبة. ولذلك كانت العلاقة بين الأخوين من المؤمنين وثيقة حتى أن كلاًّ منهما ينزل أخاه منزلة نفسه فيقضي له حوائجه كما يقضي حوائج أهله لأنه يعامله كواحد من أهل بيته لا فرق بين أخيه في الله وأخيه من أمه وأبيه بل ويفرح حينما يبادله أخوه المعاملة بالمثل فيروى أن فتح الموصلي جاء أخوه في الله عيسى التمار لزيارته فلم يجده فأمر الجارية بأن تخرج صندوق ماله وأخذ منه ما يريد (أي: أخذ حاجته) فلما عاد سيدها أخبرته فقال لها: «إن كنت صادقة فأنت حرة لوجه الله» فرحًا ورضًا بما صنع أخوه في الله فهو ما عاقبها أو لامها بل كافأها وأعتقها.

لذلك فأنت تتصرف مع أخيك في الله كما تتصرف في بيتك فالإنسان في بيته يكون على طبيعته بخلاف وجوده في العمل فإن فيه القيود والرسميات والمظاهر والتصنع والمجاملات ولذلك كان جعفر الصادق يقول: «إن أحب إخواني إلى قلبي من أكون معه كما أكون وحدي» أي: كما أكون مع نفسي أي دون تكلف أو تحفظ فليس بأخيك من احتجت إلى مداراته فتتحفظ معه في كلامك وتبرر له تصرفاتك لأنك تعلم أنه سيلتمس لك الأعذار.

بل أنت تفضي إليه بخاصة نفسك وتستشيره في كل أمرك وأنت آمن أنه لن يفشي سرك أو يهتك سترك، والحديث معه أحب إليك من الدنيا وما فيها، ولذا قيل:

(محادثة الإخوان خير من إقبال الزمان) فأنت تبث أخاك شكواك وتطلعه على ما لا تطلع عليه أهل بيتك ولذا كان المأمون يقول: «إن غلب شيء على حب المال والولد فالأخ الصالح» وكان سليمان بن عبد الملك يقول: «أكلت الطيب من الطعام ولبست اللين من اللباس وركبت الفاره من الدواب ونكحت البكر من النساء فما بقي لي من اللذات إلا محادثة صديق أطرح معه مؤونة التحفظ». وصدق من قال: النفس بالصديق آنس منها بالعشيق، فمثل هذا الصديق هو الذي تأنس النفس بصحبته وتشتاق العين لرؤيته وقد عبر عن ذلك أحد الشعراء فقال:

ومن عجب أني أحن إليهم ... وأسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ... ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

فمثل هذا الصديق إن حادثته وجدت منه المودة الصافية والنظرة الحانية واللمسة الشافية والنصيحة الصادقة والمشورة الخالصة وصدق من قال: «إذا لزمتك الهموم وألمت بك الخطوب وضاقت بك الدروب وأعيتك المسالك فعليك بإخوانك»، فلقاء الإخوان جلاء الأحزان ولذلك قيل كما ذكره الغزالي في إحيائه: لقاء الخليل شفاء الغليل ودواء العليل، فأعظم اللذات في الدنيا محادثة الإخوان، وفي الآخرة نعيم الجنان، بل هي من نعيم الجنان، فليس على وجه الأرض لذة تفوق متعة مجالسة الإخوان مع صفاء القلب وطيب الكلام، فهذه لذة من اللذات التي يتمتع بها أهل الجنات، فقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

فمجالسة الإخوان في الدنيا تزكي النفوس وتجلو عن القلوب صدأ الذنوب، فلا غنى للمرء عن أخٍ صالحٍ أو صديق ناصح، قال جعفر بن سليمان: (كلما فترت عن العمل نظرت إلى محمد بن واسع رحمه اللَّه وإلى إقباله على الطاعة فيرجع إليّ نشاطي في العبادة ويفارقني الكسل، وعملت بهذه الرؤية زمانًا غير يسير).

فالصديق الصالح يشجعك على الطاعة ويذكرك إذا نسيت ويعينك إذا ذكرت، وتذكرك طلعته بطاعة اللَّه وتقوي عزيمتك وتشحذ همتك وتشد من أزرك ألم ترَ إلى

قوله عزَّ وجلَّ في شأن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]، وقوله أيضًا: ﴿هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَي نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٠-٣٤].

وفي حديث الشيخين عن الذي قتل ٩٩ شخصًا وأراد أن يتوب فدلوه على عالم فقال له: لك توبة، فلا شيء يحول بين العبد وربه، ولكنه نصحه ألا يعود إلى بلده الذي كان يعيش فيها لأنه لا يجد فيها من يعينه على الطاعة بل سيجد فيها من يصده عنها ويعيده إلى المعاصي مرة أخرى، وقال له: بل اذهب إلى أرض كذا فإن بها أناسًا صالحين يعبدون اللَّه فاعبد اللَّه معهم. فحسب المرء وجوده بين هؤلاء الصالحين فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

وما أجمل قول الفضيل بن عياض: «نظر الرجل إلى وجه أخيه على سبيل المودة والرحمة عبادة»، أي: عبادة يؤجر عليها ويثاب كأنه في صلاة أو صيام.

وانظر إلى قول الخليل بن أحمد وكان يجلس على حصيرة صغيرة تكاد تكفيه فدخل عليه الأصمعي فقال له الخليل: «تعال فاجلس معي، فقال له: أخاف أن أضيِّق عليك، فقال له إن الدنيا بأسرها والأرض برحبها لا تسع متباغضين وإن شبراً في شبر ليسع متحابين، وأفسح له في المجلس ولذا ورد في الأثر: (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولا أجسامكم فليسعهم منكم حسن الخلق وبسط الوجه».

فأخوك من تطوي معه بساط التحفظ وتلقي بين يديه بمؤونة التكلف، فإنه إذا وجدت الأُلْفة رُفِعَت الكُلْفة وحدث الأنس والانبساط وزالت الوحشة والاحتشام وعلامة ذلك أن تأكل في بيته وتدخل الخلاء عنده وتنام على فراشه أي تتصرف معه كأنك في بيتك دون حرج أو خجل وصدق القائل:

أحب من الإخوان كل مُواتٍ ... وكل غضيض الطرف عن عثراتي
يساعدني في كل أمر أحبه ... ويحفظني حيًّا وبعد مماتي
فمن لي بهذا، ليت أني وجدته ... فقاسمته ما لدي من الحسنات

وكان محمد بن طاهر وأبو سياد القاضي أخوين تحابا في الله وانظر إلى قول أبي سياد القاضي في أخيه محمد بن طاهر وهو يصف ما كان بينهما من مودة ومحبة: عندما نتزاور يحدثني أخي محمد بن طاهر بأشياء جرت له بعد افتراقنا فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في هذا الأوان، كأنها أشياء أرادها الله لنا وقسمها بيننا أو كأني هو وهو أنا وقد يحدثني برؤيا فأحدثه بمثلها قد رأيتها في مثل وقتها وفي الحديث المتفق عليه: «**الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**» وروى البيهقي في شعب الإيمان: «**لو أن مؤمنًا دخل إلى مجلس فيه مائة منافق وفيه مؤمن واحد لجاء إلى المؤمن وجلس إليه**».

فمن صدق في محبته للَّه فإنه يجد في نفسه ميلاً ومحبة لكل من يحب اللَّه عزَّ وجلَّ، فمن متطلبات الصداقة المجانسة، فمن جمع بينهما الحب في اللَّه والعمل على مرضاته فإن الصحبة بينهما تدوم إذ من المحال أن تنشأ صداقة بين اثنين لا يتقاربان في طبع أو يتشابهان في خلق بل لا بد من الموافقة في الأفكار والغايات وإلا فكيف يتواصل رجل دنيا مع طالب آخرة؟

فلا بد من الموافقة قبل المعاشرة، ومن المجانسة قبل المجالسة، وصدق الشاعر حين يقول:

عن المرء لا تسـأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقال ابن مسعود: (ما الدخان على النار بأدل من الصاحب على صاحبه)، فالطيور على أشكالها تقع، وقد عبَّر أيضًا الشاعر الحكيم عن ذلك فقال:

فقلت: أخي، قالوا: أخ من قرابة ... فقلت لهم إن الشكول أقاربُ

نسيبي في رأيي وعزمي وهمتي ... وإن فرقتنا في الأصول المناسبُ

ومن حق أخيك عليك أن تقوم بحاجته من فضل مالك فتبدأ بسد حاجته دون أن تحوجه إلى سؤالك وإلا عد ذلك غاية التقصير في حق الأخوة.

فقد جاء أخ إلىٰ أبي إسحاق الكسائي ليلاً فقال له: ما جاء بك؟ فقال: ركبني دَيْن. فقال أبو إسحاق: وكم هو؟ قال: ٤٠٠ درهم، فأخرج كيسًا فأعطاه إياه، فلمَّا رجع أبو إسحاق بكىٰ، فقال له أهله: ما يبكيك؟ يظنون أنه يبكي حزنًا علىٰ المال الذي أعطاه لأخيه في اللَّه ليسد به دينه، كأنه ندم علىٰ ما فعل، فإذا به يقول لهم: بكائي أني لم أتفقد أحواله وأني ألجأته إلىٰ سؤالي.

وكان عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه يقول: كنا إذا فقدنا الأخ أتيناه، فإذا كان مريضًا كانت عيادة، وإن كان مشغولاً كانت إعانة، وإن كان غير ذلك كانت زيارة. فبادر إخوانك بتفقد أحوالهم، والسؤال عليهم، فقد يكون أحدهم في مشكلة يحتاج فيها إلىٰ مساعدة، وقد يخجل أو يستحي من طلب المعاونة من أخيه خوفًا من إزعاجه أو إحراجه.

وكان الرجل من سلفنا الصالح يسأل أخاه من ماله فيلقي إليه كيسه ليأخذ منه ما يشاء وإذا قال أحدهم لأخيه قم قام معه ولم يسأله إلىٰ أين؟ أو لماذا؟ أي: لا يسأله عن السبب كما قال الشاعر الحكيم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

* * *

قضاء حوائج الناس خير من الاعتكاف

وكان سلفنا الصالح إذا رأىٰ أحدهم أخاه يبكي بكىٰ لبكائه دون أن يسأله ثم يقوم بالاستفسار عن سبب بكائه بعد ذلك وكان أحدهم يقضي دين أخيه دون علمه وجاء رجل إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه فقال له: إني أريد أن أكون أخًا لك في الله، فقال أتدري ما حق الإخاء؟ قال: لا، أخبرني، فقال: ألا يكون أحد منا أحق بدرهمه من

الآخر قال: فإني لم أبلغ هذه المنزلة بعد. ولذلك قال علي بن الحسين لرجل: هل يدخل أحدكم يده في جيب أخيه أو كيسه ويأخذ منه ما يريد بدون إذنه قال: لا، قال: فلستم إذن بإخوان.

وقد لقي رجل صاحبًا له فقال له: إني أحبك. فقال له: كذبت، لو كنت صادقًا فيما تزعم لما كان لفرسك برقع يتزين به وليس لي عباءة ألتحف بها.

وصدق الشاعر إذ يقول:

إذا ربا للقلوص فلا تدع رفيقك يمشي خلفها غير راكب
أنخها فأردفه فإن حملتكما فذاك وإن كان العقاب فعاقب

والقلوص هي الناقة الفتية، ومعنى البيتين: إما أن تركب أنت وصاحبك على بعيرك إن كان يحملكما معًا، وإلا فالعقاب، أي: فتعاقبا عليه بأن يركب أحدكما ويمشي الآخر، ثم يمشي الذي ركب ويركب الماشي، فليس من الأخوة أن تظل راكبًا طوال الوقت ويمشي أخوك بجوارك. قال ابن مبادر: كنت أمشي مع الخليل فانقطع شسع نعلي، فخلع نعله، فقلت: ما تصنع، قال: أواسيك بالحفاء (أي: بأن أمشي مثلك حافيًا).

وقد قضى ابن شبرمة حاجة لأخيه فجاءه بهدية، فقال له: ما هذا؟ قال: لما أسديته إلي، قال خذ مالك يرحمك الله إذا أنت سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة ثم كبر عليه أربع تكبيرات وعده من الموتى (أي: كصلاة الجنازة على من تُوفيَّ).

وانظر في ذلك إلى حديث مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: بينما نحن في سفر فأقبل علينا رجل فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالاً (من الجوع قد زاغ بصره) ففطن إلى ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**من كان عنده فضل ظهر فَلْيَعُدْ به على من لا ظهر له ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له**» فذكر من أصناف المال حتى رأينا

أنه لا حق لأحد منا في فضل. وأيضًا في الحديث المتفق عليه: «إن الأشعريين إذا نفد زادهم في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم».

وفي حديث البيهقي أن ابن عباس كان معتكفًا في المسجد النبوي فأتاه رجل فسلم عليه ثم جلس فقال له يا فلان ما لي أراك مكتئبًا حزينًا؟ قال: نعم يا ابن عم رسول الله: لي حاجة عند فلان لا أستطيع قضاءها. فقال له: أفلا أكلمه لك فيها؟ قال: إن شئت فأخذ نعليه ثم خرج من المسجد فقال الرجل: أنسيت ما كنت فيه؟ (أي: من الاعتكاف) فقال لا: ولكني سمعت صاحب هذا القبر والعهد به قريب - ودمعت عيناه - يقول: «**من مشى في حاجة أخيه كان خيرًا له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يومًا ابتغاء وجه الله باعد الله عن وجهه النار أبعد من المشرقين**». في رواية: «**ثلاثة خنادق، كل خندق أبعد ما بين الخافقين**». هكذا تعلم ابن عباس من رسول الله ﷺ.

وفي حديث مسلم أنه جاء قوم عراة مجتابي النمار، فتمعر وجهه ﷺ لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب وحث الناس أن يتصدق كل منهم من ماله وطعامه وثيابه، ولما فعلوا ذلك تهلل وجهه وسر بما صنعوا.

* * *

ألم الفراق وفرحة اللقاء

ومن الوفاء الحزن على الفراق بسبب موت الإخوان، قال سفيان بن عيينة لقد فارقت إخوانًا منذ ثلاثين عامًا ما يخيل إليَّ أن حسرة فراقهم قد ذهبت من قلبي.

يقول الشاعر في ذلك:

وجدت مصيبات الزمان جميعَها ... سوى فُرقة الأحباب هينة الخَطبِ

وقال آخر:

يمضي أخوك فلا تلقى له خلفًا والمال بعد ذهاب المال مكتسب

ولذلك قال أحد الصالحين: إن أهل الرجل إذا مات يقسمون ميراثه ويتمتعون بما خلف وراءه بينما ينفرد الأخ الصالح بالحزن مهتمًا بما قدم أخوه عليه وما صار إليه، يدعو له في ظلمة الليل ويستغفر له وهو تحت أطباق الثرىٰ.

وكان الشافعي يحب محمد بن الحكم ويقول: ما يقيمني في مصر غيره، فمرض فعاده الشافعي فقال:

مرض الحبيب فعدتُهُ فمرضتُ من حذري عليه

وأتى الحبيب يعودني فبرئت من نظري إليه

فقال محمد بن الحكم للشافعي: إن زرتني فبفضلك وإن زرتك فلفضلك، فلك الفضل زائرًا ومزوراً.

وحدث أن اعتلّ بعض إخوان الحسن بن سهل فكتب إليه الحسن مواسيًا: (أجدني وإياك كالجسد الواحد إذا أصاب عضواً منه ألم تألَّم سائره، فعافاني اللَّه بعافيتك، ومتعني اللَّه بعائدتك) ولعله أخذ هذا المعنىٰ من تشبيه الرسول ﷺ للمسلمين بالجسد الواحد الذي إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الأعضاء بالسهر والحمىٰ وهو حديث متفق عليه.

وانظر إلىٰ فرحة الرسول ﷺ لما رجع جعفر بن أبي طالب من الحبشة وصادف ذلك فتح خيبر فقال الرسول ﷺ معبراً عن تلك الفرحة العظيمة كما روىٰ الحاكم وذلك بعد أن احتضنه وقبل ما بين عينيه: «**ما أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟**» فقد رجع ﷺ من خيبر منتصراً غانمًا ورجع جعفر من الحبشة سالمًا. ولذلك علىٰ قدر فرحة اللقاء يكون ألم الفراق.

فلما قتل جعفر في غزوة مؤتة شهيداً نعاه النبي ﷺ إلىٰ أصحابه، ثم ذهب إلىٰ

بيته ليتفقد عياله وأخذ يشمهم ويقبلهم، ثم قال: اصنعوا لآل جعفر طعامًا فقد نزل بهم ما يشغلهم.

والحب في الله لا ينتهي بموت الأخ بل ينتقل إلى أهله فيتفقد عياله ويقضي حوائجهم ويتردد عليهم حتى إنهم ليشعرون أنهم لم يفقدوا من أبيهم إلا رسمه فالأخ يستمر مع أخيه على عهد الأخوة فإن مات نقل المودة لولده وفاءً لحق الأخوة.

* * *

منزلة الصديق في القرآن الكريم

وذكر الغزالي في «الإحياء» أن الأخوين في الله إذا كان أحدهما أرفع مقامًا من الآخر رفع الآخر إلى مقامه كما تلحق الذرية المؤمنة بوالديها الصالحين في الجنة كما قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] وذلك لأن الأخوة إذا كانت في الله لم تكن بأقل من علاقة النسب وأخوة الدم وهذا يفسر لنا ما ورد في الأثر: (من آخى أخًا في الله عز وجل رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله) أي: لا يبلغها بصلاة ولا بصيام بل بالحب في الله.

ولعلّ هذا الذي ذكره الغزالي في إحيائه مأخوذ من الحديث الذي رواه ابن عمر رضي اللَّه عنهما وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد: «**من أحبّ رجلاً للَّه فقال له: إني أحبك في اللَّه، فدخلا الجنة، فكان الذي أحب في اللَّه أرفع منزلة من الآخر، ثم ألحق هذا بالذي أحبه في اللَّه**» وقد ذكر أيضًا البيهقي في «شعب الإيمان» وكذلك الهيثمي في «مجمع الزوائد» أن الرسول ﷺ قال: «**إن في الجنة غرفًا تضيء كما يضيء الكوكب الدريّ**» قالوا: ومن يسكنها يا رسول اللَّه؟ قال: «**المتحابون في اللَّه، المتجالسون في اللَّه المتزاورون في اللَّه المتلاقون في اللَّه**» ويؤيد ذلك أيضًا الحديث الذي ذكره ابن أبي الدنيا في «الإخوان»: «**ما أحدث عبد أخًا في اللَّه إلا أحدث اللَّه له درجة في الجنة**».

وقد جعل الله للصديق منزلة عظيمة ورفعه إلى مرتبة الأهل والأقارب فأباح لنا الأكل من بيت الصديق كما نأكل من بيوت أهلينا قال عز وجل: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

ولذلك لما قال أحد الإخوان لصديقه: هل أشرب من هذا الإناء؟ فقال له: أنت صديق، والصديق لا يحتاج إلى الاستئذان. بل إن الله عز وجل جعل منزلة الصديق أرفع من منزلة الأهل قال عز وجل: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١] فلم يستغيثوا بالآباء بل بالأصدقاء.

ولذلك لما أقيم حد من الحدود على أحد المسلمين قال بعض القوم كما روى البخاري في «صحيحه»: «أخزاك الله» فقال الرسول ﷺ: «**لا تقولوا هكذا، لا تعينوا الشيطان على أخيكم ولكن قولوا: اللهم اغفر له وارحمه**». وفي حديث مسلم: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يسلمه ولا يخذله**» وعند مسلم أيضًا: «**لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا**».

فالمسلم لا يبغض أخاه ولو أساء إليه بل يعفو ويصفح عنه ويدعو له بخير لأنه يعلم كما ورد في «صحيح مسلم» أن دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة وله بمثل ما دعا لأخيه. ولذلك فهو إذا أراد أن يدعو لنفسه دعا لأخيه بتلك الدعوة لعلمه أنها مستجابة ويحصل له مثلها كما في «صحيح مسلم»: «**دعوة المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل: آمين ولك بمثل**» وكما روى البخاري في «الأدب المفرد»: «**أسرع الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب**». وفي هذا الحديث حثٌ على الدعاء إذ أن كل دعوة يدعوها الأخ لأخيه يكون له منها نصيب.

وفي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي: «**ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا**

غفر لهما قبل أن يتفرقا» وفي رواية: «إلا تساقطت ذنوبهما كما تتساقط أوراق الشجر». وقد سمع رجل الإمام مجاهد يحدث بهذا الحديث ومجاهد تلميذ ابن عباس - حبر الأمة وترجمان القرآن - وكان مجاهد أيضًا علمًا في التفسير فقال الرجل: (إن هذا ليسير) فقال له مجاهد: لا تقل هذا فإن الله يقول: ﴿**هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

فالمحبة لا تورث ولا تشترى بمال الدنيا بل هي نور يقذفه الله في قلوب من يشاء من عباده، فضلاً منه ونعمة حتى إن الرجل يحب أخاه ولم يره وهو يعيش بعيداً عنه ويعلم أنه لا يصيب منه خيراً فقد روي عن ابن عباس أنه قال: (إني لأسمع بالحاكم يعدل في حكمه فأحبه ولعلي لا أقاضي إليه أبدًا، وإني لأسمع بالغيث يصيب البلد فأفرح بذلك وما لي به سائمة ولا راعية. وإني لآتي على الآية من كتاب الله فأود لو أن المسلمين كلهم يعلمون عنها مثل ما أعلم).

ولذلك كان الرسول ﷺ حريصًا على أن تشيع المحبة بين أمته ففي حديث مسلم: «**لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم**» وفي حديث مالك والبيهقي: «**تهادوا تحابوا**» فإفشاء السلام على مَنْ عرفت ومَنْ لم تعرف وكذلك التهادي لوجه الله ولو بشيء رمزي فإن ذلك له مفعول السحر في تأليف قلوب الناس وكسب ودهم.

ولذلك شاع الحب وأحب بعضهم بعضًا وأحب الرجل منهم من سبقه فقد كان خالد بن معدان قلما يأوي إلى فراشه إلا وهو يذكر شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار، ثم يسميهم ويقول: هم أصلي وفصلي وإليهم يحن قلبي، طال إليهم شوقي فيارب عجل إليك قبضي حتى يغلبه النوم وهو في بعض ذلك.

* * *

لماذا سماه سالمًا؟

ومما اعتاد عليه الناس أن يسمِّي الرجل ولده باسم أبيه أو باسم قريب له مكانة في قلبه، ولكن ليس من المتعارف عليه بين الناس أن يطلق أحدهم اسم صديق له على ولده، ولكن حدث ذلك من بعض الصحابة رضوان اللَّه عليهم، مما يدل على مكانة الصديق عند سلفنا الصالح رحمهم اللَّه.

فعن ابن المسيب قال: قال لي ابن عمر: أتدري لم سميت ابني سالمًا؟ قلت: لا، قال: باسم سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما وكان سالم يؤم المهاجرين في مسجد قباء وكان فيهم كبار الصحابة ولكنه كان أكثرهم قرآنًا وقد روى الشيخان عن ابن عمر: (**خذوا القرآن عن أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل**) وقال أيضًا: (**الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك**) وقد قتل شهيدًا في يوم اليمامة وهو يحمل راية المسلمين ويقول: (بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قبلي) وكما ذكر ابن عبد البر في «الاستيعاب» أن عمر كان يثني عليه كثيرًا ولما طعن عمر قال: لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا لوليته الخلافة ولو سألني ربي: ما حملك على ذلك لقلت: ربي سمعت نبيك ﷺ يقول: «**إنه يحب الله حقًّا من قلبه**».

وكما ينفع المسلم أخاه حال حياته فإنه ينفعه أيضًا بعد مماته فلما قتل في غزوة أُحد سبعون من خيرة الصحابة شق على المسلمين أن يحفروا مثل هذا العدد من القبور لدفن موتاهم فقد أثخنتهم الجروح فرخص لهم الرسول ﷺ في دفن كل شهيدين في قبر واحد ولما أخذوا في ذلك سألوا الرسول ﷺ من نقدم في القبر؟ فقال: «**أكثرهم أخذًا للقرآن**» رواه البخاري في «صحيحه» باب: من يقدم في اللحد؟ فصاحب القرآن هو الذي ينير القبر لأخيه ويأخذ بيده إلى رضوان الله وجنات النعيم ولذلك أمر الرسول ﷺ أن يدفن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو والد جابر بن عبد الله في قبر واحد وقال: «**اجعلوهما في قبر واحد فقد كانا في الدنيا متصافيين**».

وإكرام صديقهما

ولذلك فإن مات الأخ في الله فإن حق الأخوة باق بعد الوفاة، فتستمر المحبة في اللَّه ولا تنقطع بموت أحد الأخوين، وذلك لشرف الأخوة في اللَّه ولعظيم فضلها، بل إن مرحلة جديدة تبدأ يكون الأخ الميت فيها أحوج ما يكون إلى برّ أخيه ووفائه له، وصدق من قال: (قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثير الوفاء وقت الحياة)، والأمثلة على ذلك كثيرة.

ففي حديث أبي داود أن رجلاً سأل الرسول ﷺ: هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: «**نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الأرحام التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما**». والشاهد: (إكرام صديقهما) فحتى الصديق الذي كان أبوك يحبه ويأنس إليه وكذلك الجارة التي كانت أمك تحبها وتفضي إليها بخاصة نفسها فعليك إكرامهما والسؤال عنهما وتفقُّد أحوالهما والإحسان إليهما كما كان يفعل والداك فهذا من صميم البر بهما بعد موتهما.

فقد روى مسلم أن عبد الله بن عمر لقي رجلاً من الأعراب بطريق مكة، وكان ابن عمر يركب حماراً وعليه عمامة شد بها رأسه، فسلم عليه ابن عمر وقال له: ألست فلان بن فلان، قال: بلى فأعطاه الحمار وقال له: اركب هذا وأعطاه العمامة وقال: اشدد بها رأسك، فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك يا بن عمر، أعطيت هذا الأعرابي حماراً كنت تركبه وعمامة كنت تشد بها رأسك، وفي رواية قالوا له: إنهم الأعراب يرضون باليسير فقال لهم: إن أبا هذا كان ودًّا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد موته**».

وفي الحديث المتفق عليه عن عائشة قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ كما غرت على خديجة رضي الله عنها وما رأيتها قط، وذلك؛ لأن رسول

الله ﷺ كان يكثر من ذكرها، وكان إذا ذبح شاة قطعها أجزاءً ثم يبعثها في أصدقاء خديجة فيهديهن ما يسعهن. وروىٰ الحاكم بإسناد جيد أن امرأة عجوزًا من أصدقاء خديجة جاءت إلىٰ رسول الله ﷺ فأحسن لقاءها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه وأكرمها وأخذ يسألها عن أحوالها فلما خرجت قالت عائشة: تقبل علىٰ هذه العجوز كل هذا الإقبال؟ فقال: «**إنها كانت تأتينا زمان خديجة، يا عائشة إن حسن العهد من الإيمان**».

فانظر إلىٰ وفاء النبي ﷺ لزوجته خديجة رضي الله عنها وعن حبه لها وقد عبر عنه بقوله كما روىٰ الإمام مسلم: «والله إني لأحب حبيبها» وقال أيضًا: «لقد رزقت حبها». فما أحوجنا إلىٰ هذا الوفاء وأن نتذكر من مضىٰ من الأهل والإخوان، ولا سيما بعد أن انتشرت بيننا الآن مظاهر العقوق والجحود والجفاء والنكران حتىٰ صدق فينا قول الشاعر:

سألت الناس عن خلٍّ وفيٍّ ... فقالوا ما لهذا سبيل
تمسك إن ظفرت بودِّ حرٍّ ... فإن الحرَّ في الدنيا قليلُ

فأمثال هؤلاء الإخوان الصالحين ينبغي ألا نصرم حبالهم أو نقطع ودادهم بل نديم وصالهم، فهم نعمة من أجلِّ النعم، نسأل اللَّه أن يبقيها فينا وأن يحفظها لنا من الزوال، قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُم أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولكن عليك أن تغض الطرف عن بعض عيوب إخوانك فإن رأيت من أحدهم عيبًا فانظر إلىٰ بقية محاسنه كما قال الشاعر: (جاءت محاسنه بألف شفيع)، وارض بمثالبهم ومآثرهم، وأقلل من لومك إياهم حتىٰ لا يملوا صحبتك، وصدق من قال: (تناسَ مساوئ الإخوان يَدُم لك ودهم)، وقال جعفر الصادق: (لِنْ لمن يجفو فَقَلَّ مَن يصفو)، وفي الأمثال: (إذا عزَّ أخوك فَهُنْ)، وما أجمل قول الشاعر:

إذا كنت في كل الأمور معاتبًا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدًا أو صِل أخاك فإنه مقارفُ ذنبٍ مرة ومجانبه
وإن أنت لم تشرب مرارًا على القذى ظمئت وأيُّ الناس تصفو مشاربه

وإذا قارنت بين الآداب الإسلامية وبين المسلمين في زماننا هذا لوجدت الفرق شاسعًا وما سبب ذلك إلا جهل كثير منا بتعاليم ديننا، واقتصارنا على إقامة الشعائر فقط من صلاة وصيام وحج وتركنا لكثيرٍ من الأشياء التي هي من صميم ديننا ولا تقل أهمية عن الصلاة والصيام.

* * *

أين الصائمون وأين المتحابون؟

فكما يقول عز وجل يوم القيامة كما في حديث الشيخين: «**أين الصائمون؟**» ليدخلهم من باب الريان فإنه أيضًا يقول كما في حديث الإمام مسلم: «**أين المتحابون في جلالي**» ليظلهم في ظله يوم لا ظل إلا ظله عز وجل.

وكما ينادي من زار أخًا له في الله كما في حديث الترمذي: «**طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة نزلاً**» فإنه أيضًا يقول كما في حديث الشيخين: «**من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح**» ولذلك كان يقول علي رضي الله عنه: (ما من خطوة أعظم أجرًا عند الله بعد إتيان الصلاة من خطوة لصلة رحم أو زيارة أخ في الله».

وكما ورد في الأثر أن هناك ذنوبًا لا تكفرها صلاة ولا صيام ولكن السعي على المعاش فقد ورد في الأثر أيضًا أن هناك درجة كما ذكرنا منذ قليل في الجنة لا يبلغها المرء بعمله ولكن بالحب في الله.

وما أصابنا الآن من ذل وهوان إلا بسبب ضعف أواصر المحبة والأخوة بيننا، ومن

هانت عليه نفسه كانت على الناس أهون، فزوال المحبة من القلوب هو الثغرة التي تسلل أعداؤنا من خلالها والمقتل أو نقطة الضعف التي أوتينا من قبلها.

ولكن علينا أن نؤدي هذه الحقوق لا على سبيل الندب والاستحسان ولكن على سبيل الحتم والإلزام، وأنها فرائض كالصوم والصلاة نؤديها ونحن على يقين أنها عبادة وقربة وطاعة لله نسأل الله أن يؤلف بين قلوبنا وأن يهدينا سواء الصراط.

* * *

OBEIKAN.COM

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

(الحياء نشأ في الجنة)

لما أمر الله بإصلاح ذات البين ونوه بعقد الأخوة الذي ربط الله به بين قلوب المؤمنين نهاهم في هذه الآية عن أسباب الفرقة التي تؤدي إلى العداوة والبغضاء فلكي نقتلع جذور الخلاف والشقاق ولكي نعيش في ود ووئام لابد أن نتجنب الأسباب التي تمزق أواصر المحبة وتقضي على مشاعر الأخوة وذلك بأن نطهر قلوبنا من التعالي والكبر والاستهزاء واحتقار الناس.

فالسخرية والألفاظ النابية والألقاب السيئة تزيل حجاب الحياء، وتصبح الكلمات البذيئة بتكرارها أمراً مألوفًا غير مستقبح وإنما يبدأ فساد العلاقات بين الناس عندما تصغر أو تهتز قيمة الإنسان في عين الآخرين بحيث لا تصبح له حرمة وعندئذ ينعدم الاحترام بين الناس وتنتشر مقالة السوء بين الصغار والكبار ويتعود الناس على البذاء.

فإن من أعظم ما يميز البشر هو صفة الحياء التي توارثوها من أبيهم آدم وأمهم حواء وذلك حينما بدت لهما سوءاتهما فبادرا بسترها بورق الجنة كما قال عز وجل: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١].

فالإنسان يشعر بفطرته النقية أن للآخرين حرمة لابد أن تحفظ ولا تنتهك، ولذلك فمن رزق الحياء فإنه لا يفكر في تجاوز حقوق الآخرين أو الاعتداء عليهم. لذلك